في تطوّرها خلال القرون الثلاثة الماضية»، على «شغلها لمناصب إدارية او دينية (مدينية) بالاساس، والتـي كان يمنحها المركز السياسي والاقتصادي المسيطر، وان اعتمدت ملكية الارض في بعض الاحيان كمظهر لنفوذها وقوّتها»[٦]. فعائلة «الحسيني»، مثلاً، كانت لها مسؤولية «النبي موسى» وحجاج القدس، بينما استلم «الخالدي» باقي المسؤوليات الدينية، ويبدو انه مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت عائلة الخالدي تبدي تعاوناً اكبر مع السلطان العثمـاني، مما ادى لتعيينهـا في وظائف حكـومية في استنبول. اما عائلة «النشاشيبي»، ومعظم افرادها موظفون وإداريون في القدس، فقد استمدوا سلطتهم على الريف كوسطاء مع السلطة العثمانية من خلال مراكزهم الادارية، إضافة لكونهم تجاراً اغنياء ارتبطوا بعائلة ابو غوش بالمصاهرة ليضمنوا حراسة قوافلهم التجارية، في القرن التاسع عشر، وقد خاضت العائلة صراعاً مستمراً مع عائلات القدس الاخرى للسيطرة على القيادة السيـاسية، وازداد هـذا الصراع مـع قدوم الانتـداب البريطاني الذي ازال عائلة «الحسيني» عن بلدية القدس، وعينّ راغب النشاشيبي بدلاً له، ثم اعطيت الاوقاف لعائلة الحسيني، فكانت البداية لصراع طويل بين العائلتين استمر لاكثر من ثلاثة عقود وشمل فلسطين بأكملها، واتخذ شكلاً سياسياً وعسكرياً على امتداد فلسطين «الحديثة»، وتبلور بإنشاء الاحزاب السياسية المختلفة المعبّرة بشكل واضـح (ولاول مرة في تاريخ المنطقة) عن ايديولوجية العائلات الكبيرة الفلسطينية وتطلعاتها واهدافها ومدى مشاركتها في قيادة النضال الوطني الفلسطيني في تلك الفترة، وشكل هذه المشاركة.

وتجدر، هنا، ملاحظة ان انتقال الاهمية السياسية من مدينة نابلس ومنطقة الشمال بشكل عام إلى مدينة القدس، ارتدى اهمية خاصة للسلطة العثمانية، ضمن رؤيتنا للفروق النوعية بين المنطقتين، وما حمله هذا من تغيير في طبيعة العلاقة بين الاطراف المختلفة وفي طبيعة الصراع،والأسس التي قام عليها في هذه المنطقة. ونرصد من هذه الفروق ما يلي:

□ كـانت نابلس المركز الاقتصادي السياسي لمنطقة الشمال، وبالتحديد لريف هذه المنطقة حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر، بينما كانت القدس هي المركز السياسي والديني بالاساس للمنطقة الوسطى، وللاديان الثلاثة، مما اعطى طابعاً مدينياً لعائلاتها الكبيرة امثال: الخالدي والحسيني والنشـاشيبي، وطابعـاً دينياً بـاستلامهـا للمراكـز الاسلامية وحتى المسيحية في مدينة القدس وضواحيها، وبعداً تاريخياً اطول نتيجـة لوجودها بمعظمها في مدينة القدس ابتداء من القرن الثاني عشر تقريباً، بينما تميّزت عائلات منطقة نابلس بأصولها الريفية على الاغلب، وبحداثتها (فمعظمها جاء خلال القرن السابع عشر)، وبابتعادها عن الطابع الاسلامي المميز لمنطقة القدس.

□ اعتمـدت عائلات مدينة نابلس، في نفوذها، على جيوش الفلاحين الذين ربطتهم بها علاقة الاستغلال الاقتصادي والتبعية نتيجة لطبيعة العلاقات القائمة آنذاك على الاقطاع «السباهي» و«التيمارجي» والذي ادّى لتردّي اوضاع الفلاح الفلسطيني واعتماده على القروض التي يقدمها له «السباهي» او «التيمارجي»، واعتمـاده عليهما لحمـايته من